2014 0428_0001_r

لن يخطفوا الحلم

طباعة ع-ع+
وداد حلواني
تاريخ المقال28-04-2014 02:12 AM

إنه العام ٢٠٥٤، أنا لم أعد على قيد الحياة. وغالبية أمهات المفقودين وزوجاتهم أضحين في عداد الموتى.. إلا ان الحق لا يعرف الموت.. يعيش أملاً بين الأبناء والأحفاد وأترابهم..

إني ألمح من بعيد، من مكان إقامتي في الحياة الثانية، رياحاً تهب على لبنان، ثم لا تلبث أن تشتد شيئاً فشيئاً.

غبارٌ كثيفٌ يتطاير، يكاد يحجب الرؤية.. يحمل معه طبقة من التراب. أسمع ضجيجاً آتياً من الأعماق. أمرٌ غريبٌ ومخيف. تبدأ الأرض بالتفسّخ ، تظهر تشققات هنا وهناك.

فجأة، أسمع أصوات قرقعة تتردّد أصداؤها بوتيرة تصاعدية.. يا له من زلزال كبير، لم يشهد لبنان بقوته من قبل، ولم يحتط للحماية من كوارثه.

بدأت الأرض تميد بفعل ضغط اندفاع العظام إلى الخارج.. المشهد في غاية الغرابة: جدران البرلمان تهتز، تتفكّك، تنفصل بعضها عن بعض، تتباعد ثم يتقوّض المبنى على ذاته وينهار..

العملية ذاتها أراها تتكرّر تحت سائر المقارّ الرسمية، لم يسلم أي مبنى منها..! زالت كلّها من الوجود كأن لا لزوم لوجودها ولا لوجود قاطنيها المتعاقبين.. اختفت واختفوا معها، باتوا يقبعون في المقابر الجماعية بعدما أخلاها نزلاؤها السابقون.

ما أبهى الطبيعة ونواميسها، لقد ذاب الثلج وبان المرج .. تتحرر الرفات..تخرج إلى الضوء.. تنفض عنها غبار الزمن الرديء وتمشي..

أرى ليان ونائل زياد حلواني وابني عمهما غسان وسائر أحفاد وحفيدات المفقودين تغمرهم السعادة.. أخيراً، سيتسنى لهم التعرّف إلى أجدادهم الذين لم يحظوا برؤيتهم والتنعّم بدفئهم وعطاياهم.

نظّموا حفل استقبال يليق بأجدادهم العائدين ولو عظاماً .. بدا الحفل أشبه بمحاكمة علنية للمجرمين، محاكمة لم تقم في موعدها.

قرّر الشباب تخصيص الأرض التي كان يقوم عليها مبنى المجلس النيابي مكاناً يحضن رفات كل مفقود يتم التعرّف عليه. كان الأحفاد، مع شباب وصبايا جيلهم، قد أعدّوا بدقة متناهية كل ما يلزم لهذه الغاية: في الأماكن حيث كان كلّ من القصر الجمهوري، ومقر مجلس الوزراء والسرايا الحكومية ستشيّد الأبنية والمختبرات العلمية الحديثة اللازمة لإتمام عملية جمع وتوضيب وفرز وإجراء كل الفحوص الجينية والاجراءات للتعرف على هويات الرفات.

أما قصر عين التينة فسوف يتحوّل إلى متحف وطني عن الحرب في لبنان. يضم وثائق، نصوصاً، أفلاما، صورا، أعتدة، تجهيزات وكل ما يروي فصول تلك الحقبة السوداء.

شاهد كل قبر يحمل صورة المفقود الذي يرقد داخله واسمه. تصير المقبرة نصباً تذكارياً.. التشاور قائم بين القيمين عليها لاختيار التسمية التي ستطلق عليها: مصابيح القبور، حرّاس الذاكرة، واحة المحاسبة، باحة العدالة...؟؟

بانتظار حسم التسمية، أرى وجه نايفة نجار حمادة يغمره فرح عتيق، تلوّح من عليائها لـ «عليّ ها» مطمئنة بعدما عرفت مكان وجوده.. أرى أوديت سالم، ترمي زهرة وابتسامة لوحيديها ثم تختفي.. أرى وجهي ووجوه رفيقات درب الجلجلة، أرانا نمد أيدينا، نحاول معانقة أحفادنا وصحبهم، نشكرهم على إتمام ما عجزنا عنه قبل الرحيل..

قبل أكثر من أربعين سنة، تحضر أمامي مئات النسوة الشاكيات الغاضبات، بمعيتهن عدد من الأطفال توحدّهم علامة الاستفهام المرتسمة في عيونهم.. اللوعة واضحة المعالم على الوجوه.. أكاد ارى أطياف مَن سُرقوا من أحضانهن محمولةً على الظهور والأكتاف، صورهم تزيّن صدور النساء.

ما زالت أصداء صرخاتهن تتردّد في أذنيّ، عالية بموازاة حجم الظلم الذي هبطَ عليهن. ينتشرن في شوارع المدينة وأزقتها بحثاً عن الأحبّة الذين غادروا من دون وداع. يعقدن العهد ألا يعدن إلى البيوت إلاّ مع عودة الغيّاب..

شجاعة أسطورية لا أدري من أين أتت.. لم تتمكن نيران الحرب من لجم تحركاتهن. واجهن باللحم الحي وبلا سلاح.. لم يرهبهن رصاص القناصين، ولا أمزجة المسلحين. لم تنل ميوعة الحكّام ولامبالاتهم من اصرارهن على المطالبة بتحرير الأحبة واعادتهم سالمين... لم يرضخن لشتى صنوف الابتزاز، تهديداً كان أو ترغيباً

أدركن باكراً وتصدّين بقوة لمحاولات التسلل المشبوهة إلى صفوفهن بغرض استثمار القضية وتوظيفها في الأجندة السياسية والعسكرية لمصلحة فريق ضد فريق، وما أكثر «ولاد الحلال» أنذاك..!!

أخيراً جاء الفرج مع إعلان انتهاء الحرب.. وبما أنه «لا بد لليل أن ينجلي»، فقد لاحت تباشير السلام على ملامح النسوة، حاولن التخفّف ما أمكن من ثِقل العذاب والهم والتعب حتى لا يظهرن كغريباتٍ دخيلاتٍ على الجو والمحيط.

تبدلت السلوكيات وجداول الأعمال. أراهنّ قد خلعن ثوب النضال والجري في الشوارع وعلى أبواب المسؤولين، حررن الصدور من الصور، نفضن غبارها وخبأنها تحت المخدات كي لا يغيب الغائبون لحظة واحدة عن العيون والقلوب. لكن صورهم المعلّقة في صدور الدور لم تغادر أمكنتها إلا لتجديد طلاء الجدران حتى يكون كل شيء يليق بالمناسبة المنتظرة

لقد كنّ من أكثر المهلّلين لمجيء السلام، كنّ على يقين بمعادلة بديهية مفادها أن من اختطفهم منهن الحرب سيعيدهم السلم إليهن. لكن السلام خذلهنّ بدوره ولم يُعرهنّ حتى التفاتة..!!

كان حجم الخيبة يوازي أهمية الآتي المنتظر الذي لم يأتِ! ما أقسى أن تنتظر سنوات عمرك عودة شخص عزيز لا يأتي، ربما لن يأتي..!

عصضن على الجرح الثاني الذي سببه السلم هذه المرة. الحقيقة، أنهن لم يكنّ على علم بأن السلم يجرح، يسبب أضراراً ويوقع خسائر!! بلغت المعاناة أوجها حين قرر ذلك «السلم» أن يعفي «المسؤولين» كافة من مسؤولية تدمير البلاد وناسها على مدار خمسة عشر عاماً، من دون أي شرط ولا قيد ولا حتى مساءلة. لا بل رفع من شأن الجلادين... لم يكتف ذلك «السلم» بانتهاج سياسة النأي بالنفس عن الضحايا بل أمعن في تجاهلهم وتهميشهم، كأن العفو عن الجريمة امتدّ ليلغي معه ضحاياها!!

لململت النسوة أنفسهن، تساعدن على مؤازرة وسند بعضهن البعض وأطلقن صرخة تطالب بحق معرفة مصائر أحبتهن. الصرخة خرجت مدويةً من الحناجر، عكّرت أجواء «سلم» الميليشيات ومهرجان «إعادة الإعمار».

هل هناك أغرب من أن نرى أصابع الاتهام الرسمي توجّه الى هؤلاء النسوة مدّعية أنهن يسعين ليس فقط إلى عرقلة مسيرة السلم وإعادة الإعمار، بل أيضا الى التسبّب بوقوع حرب جديدة.. لماذا؟ لأنهن يصممن على معرفة ما حدث لأحبتهن، ولماذا لا يعودون.. أو لا يرغب أحد بالكشف عن مصيرهم؟

الموضوعية تقضي بالاشارة إلى النصائح التي أسديت إلى الأهالي وليس فقط الاتهامات.. وهل أبلغ من تلك النصيحة الرسمية بـ« عدم التطلّع إلى الوراء، وتجاوز الماضي، والتطلع إلى المستقبل والانخراط في ورشة النهوض وإعادة الإعمار»..!! وكأنّ شيئاً لم يكن..!!

عناد النسوة، إصرارهن، التمسك بالحق، المثابرة، الصبر و... كل ذلك شكّل حصناً حصيناً حال دون افساح المجال للعبث بقضية طالت ١٧٠٠٠ شخصاً ، لمنع دفنها بالرغم من رحيل عدد من أمهات القضية قبل معرفة مصير فلذاتهن..

مأساةٌ خلّفتْ معاناةً عمرهما من عمر الحرب (٣٩ سنة)، ونضال كاد يناهز الثلاثة عقود ونصف العقد... الإنجازات التي حُقّقت مهمة، لكنها لا تتناسب مع الزمن الذي انقضى إلا إذا أخذنا بالاعتبار سماكة السد المنيع الذي نُصب أمامنا منذ اللحظة الاعتراضية الأولى ..

سد أقيم بالتكافل والتضامن بين معظم القوى السياسية والعسكرية، الرسمية وغير الرسمية، المحلية والاقليمية وحتى الدولية.. ولم تحد مصالح الطوائف والمذاهب عن هذا الاصطفاف «المصطنع» الذي لم ولا تقوم له قائمة إلاّ في وجه قضايا الناس المحقّة...!

أما بعد، هل يأتي من يسأل عن أصحاب هذه المسيرة العسيرة؟ مسيرة فُرضت علينا ولم نختَرها. بالتأكيد، لم تمر كل هذه السنوات برداً وسلاماً علينا ولا على أولادنا وعائلاتنا.. سنوات عجاف أكلت من صحتنا، من نفوسنا، ومن استقرارنا... لقد أكلت أعمارنا، وتركت بصماتها على وجوهنا وأجسادنا وكل التفاصيل، لكنها لم تنل من إرادتنا، لن تستطيع مصادرة حقّنا.

صحيح أنهم خطفوا أعزاء على قلوبنا، لكن ليس هناك من يقوى على خطف الأمل منا. ليس هناك من يقوى على خطف الحلم..